صوت من العالم الآخر

للأستاذ نجيب محفوظ

[تتمة ما نشر في العددين السابقين]

استرق إلى نفسي خاطر أن أنطلق بروحي إلى العالم فانطلقت ، لم تحدث حركة في الواقع . وإنما كان يكفي أن يتجه فكري إلى شيء حتى أجده ماثلاً أمامي . بل الواقع أعظم من ذلك ؛ فقد صار بصري شيئاً عجباً ؛ لا يعصى أمره شيء ، صار قوة خارقة تشق الحجب وتتخطى السدود ، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق . بيد أني — وقد حم الوداع — نازعني الفكر إلى أهلي . فوجدت نفسي في داري . أما الصغار فقد راحوا في نوم عميق لا يزعجه بكدر . وأما زوجي وأمي فقد افترشتا الأرض ، ولاح في وجههما الهم والغم . لشد ما أعياهما الحزن والبكاء ! وغدا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مثواه الأبدي . وقد تغلغل روحي في فؤاديهما فتحرك رأساهما وتمثلت لهما في الأحلام ، ورأيت القلبين المحزونين يخفقان في كد وألم . فيم كان كل هذا الكدر ؟ ! بيد أن شيئاً استرعى بصري ! رأيت في سويداء القلبين نقطة بيضاء . فعرفتها — فما عاد يخفى عليّ علم شيء — فهي بذرة النسيان ! آه ... ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله . أجل أدركت هذا حق الإدراك ، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشيء . وتساءلت مسوقاً بلذة المعرفة متى يمكن أن يحدث هذا ؟ ! فأرتني عيناي العجيبتان صورة من المستقبل : رأيت أمي تمسك غلاماً بيمناها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوحة بزهرة اللوتس . فعلمت أنها خرجت — أو أنها ستخرج — للمشاركة في أسعد أعياد قريتنا ، عيد الإلهة إيزيس . كان وجهها متهللاً وكان ابني يهتف ضاحكاً . ورأيت زوجي تهيئ مائدة — والطعام خير ماتصنع في دنياها — وتدعو إليها رجلاً أعرفه ، فهو ابن خالها ساو . ونعم الزوج هو . ولو أن ميتاً يسر لسررت لها ، لأن ساو رجل فاضل ، وهو خير من يسعد زوجي ويرعى أبنائي . وانصرفت روحي عن داري . فرت في سبيلها بقصر أميري المحبوب ، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسفاً لفقدي وهو الذي قدرني أجل التقدير وجازاني خير الجزاء . ووجدته مشغولاً باختيار خلف لي فقرأت في ذاكرته اسم المرشح الجديد « آبرع » وكان من مرؤوسي النابهين وإن لم تتصل بيننا أسباب المودة . كل هذا جميل . ولكن إلام أبقى في قريتي واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام ؟ رأيت منف — في لمح البصر — تعج بجمهورها الحاشد . والقصر في أروع منظر . وقد اجتمع في بهو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد . هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد . وهذا فرعون المظفر يحادث رسول الحيثيين الجبارة في جو بالمودة عامر . أما صدر الملك فقد امتلأ احتقاراً ، وترددت بأعماقه هذه العبارة : « لا بد مما ليس منه بد » وأما صدر الرسول فقد بض كراهية ، وتحيرت به هذه الفكرة : « صبراً حتى يموت هذا الملك القوي » . ونشطت عيناي ، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون . رأيت عالمي الظاهر والباطن بغير حجاب . وتسليت زمناً بتفحص ما في البطون من طعام فاخر وشراب معتق ، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم ! وهما محرمان على الكهنة . وتساءلت ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودس هذا الطعام في جوفه ؟ ! ولمحت في ناحية من معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذي أودى بحياتي ، وكان الرجل يحاور قائداً في سرور وانشراح فقلت له في نفسي : « على الرحب والسعة ! » . ثم وقع بصري على الحاكم تيتي الذي اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالي فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه . فنظرت إليه بإمعان . وسرعان ما تكشف لي عن جسم مهزول ، مريض الأعضاء ، لا يفتأ يشكو مرّ الشكوى أسنانه ومفاصله . وكلما ألح عليه الألم تمنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه . ولذلك تملكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردد عن بتر العوج من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة . وإلى جنب تيتي شاهدت الوزير مينا ، ذلك الرجل العنيد الذي حارب فكرة الصلح بكل قواه ، وطالما حرّض على القتال ، وتساءلت ترى ماسرّ عناد هذا الوزير الخطير ؟ ! رأيت عقله نيراً ، ولكن أمعاءه ضعيفة فتستبق فضلات الطعام طويلاً فتلوث دمه في دورته فيذهب إلى عقله فاسداً ، ويغشى نور أفكاره ، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير ! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحاً مستقيماً كما أرى فمه مسوداً ملوثاً ! ثم دار بصري بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء سمات الثغور . هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس لصاحبه : « متى العودة إلى القصر حيث السماع والقيان ؟ ! » وهذا صدر يتوجع قائلاً : « لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائداً على فرقة الرماح ! » وذاك صدر يقول في جزع متسائلاً : « متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشية فأهرع

إلى زوجه الحسناء المحبوبة ... آه ... » وقال صدر لصاحبه من الأعماق : « لا يدرى إنسان متى يحين الأجل . فلا يجوز بعد اليوم أن أؤخر بناء مقبرتى . أو فما فائدة المال إذاً ؟ ! » وتولت الحيرة صدراً كبيراً فجعل يقول لصاحبه : « قال أخناتون إن الرب هو آتون . وقال حار محب إنه آمون . وهناك قوم يعبدون رع . فلماذا يتركنا الرب فى شقاق ؟ » ولم أواصل الاستطلاع طويلاً فى هذا الحفل الفرعونى الجليل إذ سرعان ما أدركنى الملل . فتحولت عنه ووجدت نفسى مرة أخرى فى الدنيا الواسعة . ومرت أمام ناظرى مشاهد كثيرة من الأرض والسماء ، لمست حقائقها جهرة ، ونفذت إلى صميمها ، حتى وقع البصر على جنين يتكون فى رحم ، فرأيته يكتسى لحماً وعظماً . وشهدت مولده . وجرى البصر معه فى المستقبل فرآه طفلاً وصبياً وغلاماً وشاباً وكهلاً وشيخاً وميتاً . وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحة ومرض وحب وملل . رأى ذلك جميعه فى دقيقة من الزمان . حتى كاد يختلط فى أذنى بكاء الميلاد وشهقة الموت ! وغلبتنى على أمرى رغبة جامحة فى اللعب فسايرت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى الممات . واستلذذت كثيراً وقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن ! فهذا وجه يضحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات فى جزء من الثانية ! وهذه امرأة تتيه حسناً وتعشق وتتزوج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمج فى لحظة من الزمان ! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن . هذا وغيره مما لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة . فلو أن ميتاً يضحك لأغرقت فى الضحك . وبدا لى كأنه لا حقيقة فى العالم إلا التغير ! ورغبت نفسى عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصرى . ورنوت إليهم من بعيد جماً غفيراً لا يحده شىء . تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت الفوارق . فصاروا كتلة واحدة . ساكنة صامتة . لا حياة فيها ولا حركة . ورحت ألقى البصر فى دهشة وحيرة . حتى ألفت النظر . فتكشف لى عن جانب جديد كان من قبل خافياً . رأيت ذلك الظلام الساكن يشع نوراً شاملاً ؛ فإن الأنوار الخافتة المتهافتة التى تخفق فى كل مخ — على حدة — ضعيفة خابية ، اتصلت فى المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نوراً قوياً باهراً . رأيت فى لمعها حقاً باهراً وخيراً صافياً وجمالاً متألقاً فازددت دهشة وحيرة . رباه لشد ما تعانى الروح وتتعذب ولكنها تبدع وتخلق على رغم كل شىء . رباه لقد رأى توتى أموراً جليلة وليرين أموراً أجل وأخطر . وأيقنت أن ذلك النور الذى بهرنى إن هو إلا نقطة من السماء التى سأعرج إليها . وغضضت البصر . ووليت الدنيا ظهرى . فوجدت نفسى فى حجرة التحنيط المقدسة . وقد ملأ روحى سرور إلهى لا يوصف ...

***

وانتهت أيام التحنيط السبعون . فجاء الرجال مرة أخرى ، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها فى الأكفان ، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتى الشاب ووضعوا فيه الجثة ، ثم رفعوه على أعناقهم وساروا به إلى الخارج ، فتلقاه المشيعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم ، وعاد النواح كأفظع مما كان يوم النعى ، وذهبوا إلى شاطئ النيل ، وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربى ، والتفوا بالتابوت يصوتون وينوحون . قالت أمى : « لا جفّ لى دمع ، ولا اطمأن لى قلب من بعدك ياتوتى ! » . وصاحت زوجى : « لماذا قضى علىّ بأن أعيش بعدك يا زوجى ! »

وقال حاجب الأمير : « توتى أيها الكاتب المجيد . لقد تركت مكانك شاغراً ! »

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكرتا لمالكيهما ، وكأن سبباً لم يصلنى يوماً بهذه الدنيا ، ولا بهؤلاء الناس . ورست السفينة إلى الشاطئ ، فرفعوا التابوت مرة أخرى ، ومضوا به إلى المقبرة التى أنفقت فى تشييدها جل ثروتى ، وأحلوه موضعه من الحجرة . وفى أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى ، يلقنوننى التعاليم الهادية من أقوم سبيل ! ثم جعلوا ينسحبون تباعاً حتى خلا القبر ، ولم يعد يسمع من شىء إلا العويل الآتى من بعيد ، وأغلقت الأبواب وهيلت عليها الرمال ، فانقطعت كل صلة بين العالم الذى ودعت ، والدنيا التى أستقبل ...

* * *

ملاحظة : هنا انقطعت الكتابة فى المخطوط الهيرغليفى ، ولعل فترة الانتظار التى أشار إليها الكاتب فى أول كتابته كانت قد انتهت . ولعل رحلته الأبدية كانت قد بدأت ، فشغل بها عن قلبه المحبوب ، وعن كل شىء

نجيب محفوظ